استجابة اللغة العربية لتحولات العصر

د. عفيف دمشقية ـ لبنان ـ

تمهيد

لا بد قبل الدخول في صلب الموضوع من الاشارة إلى أن اللغة ـ أية لغة ـ هي «فكر الأمة» لأن فيها «ما ورائية» خفية تحدّد فكر الناطقين والقارئين والكاتبين بها، وتوجّهه وترسم له قدره. ولا غرو، فهي ليست مجرّد نظام لساني مهمته تجسيد الأفكار والآراء، بل هي نظام لصقل تلك الأفكار والآراء، ومنهج لارشاد نشاط الفرد الذهني، وتحليل انطباعاته، وتوليف ما في أعماق ذاته[١]. وتبدو أهمية اللغة وخطورتها أكثر ما تبدوان في الأمور التالية:

- أنها نظام متكامل تستخدمه جماعة معينة من البشر للتفاهم والتواصل.
- إنها مجموعة من «الرموز» يتّحد فيها المدرك العقلي بالصورة الصوتية فيؤلفان وحدة تامة.
- إنها إرث جماعي، أو بالحري، ملك خاص لكل فرد من أفراد الجماعة، وملك مشترك بين جميع الأفراد في الوقت عينه[٢].

ولما كان النتاج المكتوب أكثر المجالات تعبيراً عن فكر أمة من الأمم فقد قصرنا بحثنا هذا على العربية النموذجية (الفصحى) بوصفها شكل التعبير الذي يعنينا في هذا المقام، وتحديداً على «العربية المعاصرة» التي بدأت تتكوّن في أوائل القرن الماضي وما زالت تنمو وتترعرع حتى يومنا هذا.

ولعل أول ما ينبغي أن نبادر إليه هو القول بأن ما قد ظنّه ـ أو يظنّه ـ المتمسكون بأهداب نقاء اللغة من أن العربي لا يزال يستخدم للكتابة في أواخر القرن العشرين لغة الأجداد وأنماطهم في التعبير هو ضرب من الوهم ما أنزل الله به من سلطان[٣]، وأن ما يتذرّع به بعض الباحثين لاثبات هذا الرأي من استعصاء الفصحى العربية على العاميات السائدة في أصقاع الوطن العربي بإزاء إنقراض لغات كثيرة، على رأسها «اللاتينية» التي كانت لغة القراءة والكتابة والأدب في فرنسا وايطاليا ورومانيا وأسبانيا والبرتغال، بعد اشتداد عدد اللهجات التي كانت لغة الخطاب اليومي في تلك البلاد، لا يقوم دليلاً على استعصاء هذه العربية الفصحى على قوانين التطوّر الطبيعي الملازم لتطوّر مستخدميها، لأنه لا حياة للغة بمعزل عن حياة أبنائها، ولأن أي تطوّر في حياة هؤلاء الأبناء لا بد أن ينعكس على لغتهم[٤].

ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن سلفنا الصالح كان أرحب منا أفقاً في هذا المضمار لأنه لم يشعر في مواجهة ما استجد من أمور خلال مسيرته الحضارية بأي قصور أو دونية، بل راح يحطم العقبات التي تحول بينه وبين الانخراط في الحضارة العالمية القائمة يومذاك ليخلص بعد إلى الاسهام فيها ونشرها في أربعة أقطار المعمور. ولا غرو، فقد كان رائدهم إلى ذلك أن «الاجتهاد» هو طريقهم الأوحد إلى أن يكونوا أمة جديرة بمكانتها على هذه البسيطة، وعلينا نحن اليوم، بدل البحث عما إذا كانت لغتنا قابلة أو غير قابلة للاستجابة لتحولات العصر، أن ننبذ كما نبذوا كل شعور بالدونية وأن ندرك أن طريقنا الأوحد إلى اللحاق بركب الحضارة العالمية القائمة اليوم لنصبح فيها فاعلين وأسياداً، لا مستهلكين وأذناباً، هو فتح باب الاجتهاد في لغتنا على مصراعيه بدل الوقوف أمامها بين نادب ومتفجّع وصائح «ليس هذا عربياً، ولم يقل بذلك فلان من النحاة، ولم يجز ذاك أهل اللغة» إلى آخر الأسطوانة المجرّحة التي تتعثر فوقها الابرة مردّدة نفس الكلام آلاف المرات، بينما اسطوانة الكون في سباق مفتوح مع الزمن، وابرة الحضارة تأتي كل يوم بجديد[٥].

ولكن ذلك لا يمنع من الاعتراف بأن عربيتنا أصابت تطوراً

كبيراً في أهم مجالاتها، مجال الدلالة، منذ مطلع النهضة العربية الأخيرة على يد رواد الصحافة والرعيل الأول من المترجمين[٦]، وشيئاً من هذا التطور على يد المجامع اللغوية العربية، وكان أن كتبت الحياة لبعض المفردات الجديدة فسارت وشاعت على الألسنة والأقلام، وسار بعضها الآخر جنباً إلى جنب مع ألفاظ استعيرت من لغة أجنبية للدلالة على المدلول نفسه، واندثر بعضها إلى غير رجعة. فعلى سبيل المثال:

- ما كتب له السيرورة: المصعد - الثلاجة - القطار - المجهر - الحضارة - الثقافة - التكيّف - الجهاز (الهضمي، التنفسي، التناسلي إلخ...) المعطف - الشرطي....

- ما تعايش مع مثيله الأجنبي: اللفافة (مع «السيكارة» أو «السيجارة») الهاتف (مع «التلفون») النزل (مع «البنسيون»).

- ما لم يكتب له البقاء: الطزر في مقابل «الفيلا» (يستعمل بعضهم كلمة «الدارة») - المشن في مقابل «الدوش» - الطارمة في مقابل «الكشك» المعرّبة عن Kiosque - المشوش في مقابل «فوطة الطعام» الميدعة في مقابل «البلوزة» - الخيالة في مقابل «السينما» إلخ...[٦] ثم أن الكلمات تكتسب دلالتها في كل لغة بعد تجارب كثيرة من الأحداث الاجتماعية التي يمر بها المرء، وترتبط الكلمة في ذهن كل منا بتلك الأحداث ارتباطاً وثيقاً (...) وعلى قدر شيوع الكلمة في البيئة الاجتماعية، وعلى قدر ما تمر به من تجارب الأحداث الدنيوية، تكتسب تلك الظلال الدلالية، وتترامي حدودها، وتتضح صورتها في الأذهان، ويقال عن الكلمة حينئذٍ ان دلالتها واضحة لا غموض فيها ولا إبهام، فلا تكاد الأذن تتلقفها حتى يخطر في الذهن لها صورة بارزة المعالم والحدود[٧].

العربية المعاصرة

نستخلص مما تقدم أن أبناء الوطن العربي يستخدمون اليوم لغة مغايرة للتي يتوهم الواهمون وجودها وأبرز معالمها على طريق التطوّر:

- تسرّب عدد من طريق التعبير الأجنبية[٨] عبر الصحافة والمترجمات التي نهضت بالجزء الأكبر منها «مدرسة الألسن» التي أنشأها رفاعة الطهطاوي بمصر في عهد محمد علي.

- مشتقات جديدة ابتدعتها قرائح الكتاب والأدباء لتحلّ محل المقترضات العجلى من اللغات الأجنبية المترجم عنها[٩].

- تغيّر في طريقة الكتابة تبعاً لتغير طريقة التفكير: من تقصير الجمل، وفصل العبارات واستخدام صيغ جديدة لأداء معان جديدة، والتجوّز بكثير من المفردات لإصابة ما لا تطوله بأصل الوضع اللغوي[١٠] ما دام اللفظ الجديد أو الأسلوب الجديد «ليس من شأنها أن يفسدا أصلاً من أصول اللغة، أو يخرجا بها عن طريقها المألوفة»[١١].

ولا تزال هذه العربية المعاصرة «جادة في مسيرتها التطورية الطبيعية لأنها - شأنها شأن كل لغة - إرث يعاد تأسيسه ويستكمل بشكل أو بآخر، وبدرجات متفاوتة، في كل جيل، وحسب تبدّل صورة العالم الماثلة لأذهان الناطقين بها»[١٢].

تمثل «العربية المعاصرة» لتحولات العصر

إن الوطن العربي، وقد نفض عنه غبار قرون القهر والتسلط اللذين مورسا عليه زمناً طويلاً، يعيش منذ قرن ونيف حالة مخاض: بحث عن الذات، ثورة على التخلف والجهل، سعي دائب للاعتماد على النفس في اكتشاف مصادر الثروة وتوظيف الامكانات، أمل وعمل لتحرير الأرض المغتصبة، نهضة إثر نهضة ومزيد من الرقي الفكري والثقافي، دأب متواصل للّحاق بركب الحضارة العالمية القائمة.... وهذا الوطن العربي جزء من عالم أكبر يجد فيه جديد كل يوم تقريباً، وعليه بالتالي أن يساير ركب الحضارة المعاصرة إستجابة لطموحاته. ومن هنا ينبغي على أبنائه الميامين أن يسلكوا السلوك اللائق بالأمم الحية فلا يدخروا جهداً في استكمال إرثهم اللغوي بما يحقق له الاستجابة لكل طارىء على مستوى هذه الحضارة وعليهم أن يذكروا أن لهم أسوة حسنة في ما فعل أجدادهم يوم احتكوا بحضارات لم يكن لهم - ولا لهم - عهد بثمراتها، فشمروا عن سواعد الجد لتطوير لغتهم بما يكفل تمثل معطيات تلك الحضارات بكل وسيلة متاحة. وعلم الله أن هذه اللغة تملك من أدوات التجديد ما تملكه كل لغة حية، وإن اختلفت الطبائع والمناهج. فلقد أدركوا قدرة لغتهم العربية على التوليد عن طريق الاشتقاق فأكثروا منه، وعن سبيل التوسع بالدلالات للحصول على معان جديدة فكدوا الأذهان له، وما كان يستعصي من الأمور كانوا يستعيرون له من اللغات الأجنبية بعد أن يخضعوا ما يقترضون لقوانين لغتهم في مجال الأصوات والبنية الصرفية والنحوية. ولم يقف الأمر بهم عند هذا بل راحوا يشتقون من الدخيل إذا اقتضت الحاجة غير هيابين، ورائدهم في كل ذلك ثقة بالنفس وبعد عن كل شعور بالدونية. وكان أن تمثلوا بـ «لغتهم الجديدة» معطيات الثقافات والحضارات الجديدة، وأضافوا إليها - بهذه اللغة - الكثير الكثير من الثمرات الجديدة.

وللعرب كذلك أسوة حسنة أخرى في سلوك الأسلاف الأَدْنَيْن في فجر النهضة وابّانها[١٣] وما أورثونا من مفردات ومصطلحات نستخدمها اليوم بعفوية ويسر لأنها غدت من صميم عربيتنا،

مفردات ومصطلحات من مثل «الروائي» و«المأساة» و«الملهاة» و«المسرحية» و«الانسانية» و«العقائدية» و«الرأسمالية» و«الاشتراكية» و«حجر الزاوية» و«البرج العاجي» و«الرقم القياسي» و«الاستعداد الفطري» و«الوعي» و«اللاوعي» و«الانفعالات النفسية» إلخ . . . .

وهنا يقودنا البحث إلى التوقف عند قضية هامة هي أن علينا، قبل الشروع في وضع أي مصطلح جديد بإزاء المصطلح الأجنبي، أن نحسن فهم هذا المصطلح، ونقف على سرّ مدلوله في لغته الأصلية، وندرك القانون اللغوي الذي أتاح وضعه في هذه اللغة، لأنه إن لم يتم لنا ذلك أدى بنا الأمر إلى ما لا يستحب من التباس وغموض إلى قصور وإجحاف بالعلاقة بين الدال والمدلول إلى دلالة غير واضحة قد تؤدي أحياناً إلى عكس المراد منها. ومن هنا كان لزماً أن تتضافر جهود المتخصصين في فرع من فروع المعرفة أو علم من العلوم الطبيعية أو الوضعية وجهود المتخصصين في حقل اللغة بجميع مضامير ليخرج المصطلح الجديد سليماً معافى جديراً بالتبنّي من قبل السلطات العلمية واللغوية، وبالتالي من قبل المنتفعين في أربعة أرجاء الوطن العربي.

خاتمة

ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا في ختام هذه العجالة أن العرب أثبتوا ولا يزالون يثبتون أنهم وإن فقدوا بعض مقومات حضارتهم الغابرة المجيدة ـ بل ربما كثيراً منها ـ بفعل ظروف القهر والتسلط، وسياسة التجهيل والإفقار وإشاعة الأميّة التي مارسها عليهم المستعمر وأذنابه من بعده، فإنهم لم يفقدوا أصالتهم وحيويتهم وها هم يقبلون على مكتشفات العالم ومبتدعاته يتمثلونها بلغتهم «المعاصرة» علوماً وضعية، وتكنولوجيا، وعلوماً إنسانية، مقترضين من لغات المكتشفين ما لم يوفّقوا بعد إلى وضع المصطلحات العربية له، مشتقين من أصول عربيتهم ما يمكن اشتقاقه، متوسعين ببعض الدلالات ما يتاح التوسع فيه، مؤدين بأكبر قدر من الأمانة معطيات الحضارة العالمية المعاصرة ريثما يقدّر لهم أن يصبحوا فاعلين فيها بدلاً من البقاء من مستهلكيها.

ولا بد من الاشارة إلى أنه في خضم تسارع الاكتشافات والتعجل القسري لمواكبة ركب الحضارة القائمة لا مناص من حدوث سقطات وارتكاب هفوات، ولكن تلك السقطات وهذه الهفوات لا تعالج بتسليط عدسات التزمّت وادعاء الحرص على نقاء اللغة وصفائها، وإنما بالبحث المنهجي العلمي الدقيق وروح الانفتاح على كل جديد خيّر. وليس لأحد أن يحكم على ما يستجد في العربية من مفردات ومصطلحات بالصلاح أو عدم الصلاح لقياسيتها أو شذوذها، فاللغة وحدها هي الفيصل أولاً وآخراً لأن لها «حامية» تمنع غير المرغوب فيه من دخول حصنها وتشرع أبوابه للصالح المفيد. كما أنه لا خوف على العربية ولا هي تحزن أمام تفجّع المتفجعين من أصحاب النقاء اللغوي، ولا أمام الدعوات الشعوبية المغرضة بعجزها وقصورها، لأن مثل هذه الدعوات لا تعدو أن تكون إسقاطاً لقصور الدعاة وعجزهم عن التفكير بها وصياغة أفكارهم بأساليبها بعد أن نبذتهم لأنهم آثروا البقاء غرباء عنها!

الهوامش

(١) Selected Writings of Benjamin Lee Worf, New York and London, 1956. 212.

(٢) W. V. Wortburg et S. Ulmann, Problèmes et Méthodes, de la Linguistique, Paris, 1969, p.p. 284-285.

(٣) يقول عباس حسن في كتابه «اللغة والنحو بين القديم والحديث»، دار المعارف، ط ٢، ص٢٥ تعليقاً على قرار لمجمع اللغة العربية بالقاهرة عن الذين تصحّ محاكاتهم من العرب، وقد حددهم بعرب الأمصار حتى نهاية القرن الثاني الهجري وبدو جزيرة العرب حتى نهاية القرن الرابع: «لم يرض عن هذا القرار المجمعي كثير من المثقفين. فقد عجبوا أن يرفض المجمع الاستشهاد بعلماء البيان في العصور المختلفة التي جاءت بعد التحديد كأبي تمام والبحتري والمتنبي وشوقي من الشعراء، وكالجاحظ وابن خلدون والمويلحي ومحمد عبده وأمثالهم من كبار الناثرين، وغير هؤلاء من رجالات اللغة والعلم والأدب.

ولكن غاب عن هؤلاء الساخطين أن من يسمونهم (زعماء البيان) لا يستحقون هذه التسمية والاتصاف بمدلولها إلا إذا صحت لغتهم واستقام لسانهم. ولن يتم لهم هذا إلا إذا جروا على النمط السليم واتبعوا أصوله. ومتى فعلوا فقد صاروا عرباً بلغتهم، وتماثلت اللغتان حتى صارتا لغة واحدة، وأصبح كلام هؤلاء الزعماء منسوباً إليهم في الظاهرة، ولكن مفرداته وضبطها، وطريقة تركيبها ونظم تأليفها منسوبة إلى العرب الأوائل، فهم والعرب سواء من هذه الناحية».

وقد أورد محمد بن سلام الجمحي صاحب كتاب «طبقات فحول الشعراء» عن استاذه يونس بن حبيب عن أبي عمرو بن العلاء أن العرب كلها ولد إسماعيل الذي يقال انه أول من تكلم بالعربية ونسي لسان ابيه ولكن هذه العربية هي اللسان الذي نزل به القرآن، وما تكلمت به العرب على عهد النبي (صلعم) وتلك عربية أخرى غير كلامنا هذا (طبقات فحول الشعراء، مطبعة المدني ـ القاهرة، ج ٢١ ص ٩ ـ ١٠)ولا بد من الاشارة إلى ما في قول أبي عمرو بن العلاء من إقرار ضمني بتطور اللغة عبر العصور مع التذكير بقرب الزمن بين العربية المشار إليها والعربية التي كانت سائدة في عهد النبي.

(٤) د. إبراهيم أنيس، اللغة بين القومية والعالمية، دار المعارف، ١٩٧٠، ص ١٤٦. وانظر في هذا الصدد د. عفيف دمشقية، اللغة العربية والحضارة، محاضرة ألقيت في النادي الثقافي العربي ببيروت بتاريخ ١٩٧٧/٥/٦.

(٥) راجع في هذا الصدد د. عفيف دمشقية، اللغة وباب الاجتهاد، بحث منشور في مجلة «الفكر العربي المعاصر» بيروت، العدد ٣٠/٣١، صيف ١٩٨٤.

(٦) Vendryés,Le Langage, Paris, 1968, p. p. 220 - 221
وانظر كذلك د. عفيف دمشقية، الانفعالية والابلاغية في بعض أقاصيص ميخائيل نعيمة، دار الفارابي، بيروت، ص ١٢ وما بعدها؛ ود. إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، الأنجلو المصرية بالقاهرة، ١٩٧٢، ص ٣٢ - ٣٣.
(٧) د. إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، الأنجلو المصرية، ١٩٧٢، ص ١٧٣.
(٨) د. مصطفى جواد، المباحث اللغوية في العراق، القاهرة ١٩٥٥، ص ٣٤.
(٩) H. Pellat, Introduction à L'Arabe Moderne, Paris, 1970 p. IV
(١٠) عمر الدسوقي، في الأدب الحديث، القاهرة ١٩٧٠، ج ١ ص ٢٥٦.
(١١) طه حسين، حديث الأربعاء، القاهرة (بلا تاريخ)، ج ١ ص ٣٢٣.
(١٢) راجع في هذا الصدد Problèmes et Méthodes de la Linguistique, op. cit. p. p. 252 - 253.
(١٣) كتب فتحي زغلول (توفي ١٩١٤ م): «نحن إما عرب أو مستعربون أو أجانب عن لغة العرب أو مولدون. فإن كنا الأولين فلنا حق التصرف بلغتنا كما تقتضيه مصلحتنا. وإن كنا مستعربين فبحكم قيامنا مقام أصحاب هذه اللغة، وبكوننا ورثناها عنهم بعد أن بادوا. فليس من له أن ينازعنا في استعمال ما كان مباحاً لآبائنا من قبلنا. وأن كنا أجانب أو مولدين فمن له أن يسيطر علينا ويحرمنا ثمرة الله في حفظ هذه اللغة وتفضيلها على غيرها من اللغات فيلزمنا بالبقاء على القديم ويحكم علينا بالجمود واعتقال اللسان؟». وكتب الشيخ محيي الدين الخياط (توفي ١٩١٤ م) «ثم لا بد لنا من التنبيه على أمر ذي بال وهو أن اللغة العربية لا تحيا الحياة الطيبة ولا تنتشر انتشاراً واسعاً في هذا العصر إلا باستعمالها دون عنت ولا تضييق على الوجه الذي اتصل بنا من ابنائها الأولين، نقبل الدخيل فنعرّبه ونعده منها ونتصرف به، ونتوسع في المجاز والاستعمال كما توسع ابناؤها الأصليون بشرط أن تكون خالصة من شين اللحن ورثاثة الأسلوب» وكتب الشيخ محمد الخضري: «أما اللغة فالقصد منها الابانة والافصاح، وهي من وضع الأفراد، تتجدد بتجدد الحاجات. . . . إن حق التغيير للحاجة ثابت لنا، ومتى اتفقنا على نيل هذا الحق لم يبق إلا التخيّر بين سهل وأسهل ومفيد وتام الافادة. . .».

روايات وقصص عربية
من منشورات دار الآداب ـ بيروت

- **أولاد حارتنا (طبعة جديدة)**
  نجيب محفوظ
- **الأفواه**
  عبدالرحمن الربيعي
- **الوطن في العينين (الطبعة الثانية)**
  حميدة نعنع
- **ظلال على النافذة**
  غائب طعمة فرمان
- **نجران تحت الصفر (ط ٣)**
  يحيى يخلف
- **النمور في اليوم العاشر (ط٢)**
  زكريا تامر
- **النهايات (ط٣)**
  الدكتور عبدالرحمن منيف
- **الحب له صور**
  ليلى العثمان
- **العدوى**
  وليد أبو بكر
- **مجنون الورد**
  محمد شكري
- **سلخ الجلد**
  د. محمد برادة
- **الشجرة المقدسة**
  محمد زفزاف
- **مهمة غير عادية**
  أبو المعاطي أبو النجا
- **الرحلة**
  د. رضوى عاشور
- **قصة حب عصرية**
  الدكتور شريف حتاتة
- **مذكرات امرأة غير واقعية (رواية)**
  سحر خليفة
- **الحب خارج الزمن**
  رؤوف وصفي
- **رحلة الحب والحصاد**
  مبارك ربيع
- **صباح. . ويزحف الليل**
  عبدالكريم غلاب
- **الرهينة**
  زيد مطيع دماج
- **الجسر**
  زيد مطيع دماج